

من جماليات المرحلة الزرقاء في رسوم بابلو بيكاسو (١٩٠١ - ١٩٠٤).

خلال السنوات الأولى من حياته ظهرت ملامح شخصيته القوية. كان بيكاسو ينظر إلى نفسه كفنان بطولي اقرب ما يكون إلى سوبرمان نيتشه. في المدة التي سبقت المرحلة الزرقاء، كان بيكاسو يركّز على رسم الأزهار مستعملاً ألواناً قاتمة، وفي وقت متأخر من عام (١٩٠١) اخذ فنه منعطفاً مفاجئاً عندما بدأ رسم لوحات مرحلته الزرقاء ذات اللون الأحادي. هذه الأعمال يسهل التعرف عليها بألوانها الزرقاء وأشخاصها الحزاني.

تشير المرحلة الزرقاء إلى سلسلة من الرسوم التي فيها اللون الأزرق مهيمناً على رسوم بيكاسو ذات الطابع التعبيري والدقة الشاعرية، والاكنتاب الشخصي. هذه الحقبة ساهمت في تحويل أسلوبه من نزعة كلاسيكية إلى نزعة تعبيرية وتجريدية. في هذه المرحلة لم يكن بيكاسو مقتنعاً بالهيمنة اللاهوتية والكلاسيكية على الفن الأوربي التراثي، فالانطباعيون وعلى رأسهم سيزان مهدوا الطريق له لإنتاج لغة مرئية مباشرة باتجاه الفن التجريدي وقيم تعبيرية أخرى. عبرت المرحلة الزرقاء عن الأصالة الحقيقية لبيكاسو، وتفاعله مع قيم الحداثة الجديدة التي بدأت تنتشر بين المثقفين والفنانين كالنار في الهشيم، وهي تشير إلى محاولة صياغة وسائل تصويرية تحمل مشكلاته وتطلعاته الإبداعية، وتحد من الكلاسيكية أو بقاياها. كان يود بلوغ ذروة التوحد مع الذات، وأخذ الخطوة الأولى من خصوصية الفن التشكيلي، فقد اختصت هذه المرحلة بالبعد العاطفي لحياته الشخصية فضلاً على الكآبة، والقلق، والاعتراب، والغموض، والتذمر.

زيارته المتكررة لباريس بين عام (١٩٠٠) إلى (١٩٠٤) مكنته من الاطلاع على فنون الرسم الجديدة في صالونات وكالريات الرسم. طموحه بزيارة باريس كان جامعاً، فقام بأول زيارة لها في عام (١٩٠٠) ولأول وهلة واجه بيكاسو صعوبة التكيف مع عالم باريس المثير وفيها سكن في حي الفن والفنانين في مونمارتر، ولفقره سكن في شقة متواضعة جداً. وفي عام (١٩٠١) وجد بيكاسو مبتغاه في تحقيق طموحاته الفنية في ملصقات شيريه، ورسوم تولوز لوتريك عن الراقصات وبائعات الهوى في ملهى الطاحونة الحمراء، ورسوم ديغا، وريبنوار، ويونار، وبولدينني، فاخذ يدرس هذه الرسوم والملصقات، فيستوحى منها بيكاسو الموضوعات (الثيمات) التي يريدها في أعماله، فهو أسلوب متبع في الرسم والنحت عند بعض الفنانين في بداية مسيراتهم الفنية. لوحات بيكاسو التي استوحى موضوعاتها من بعض أعمال كبار الفنانين، هذا المنحى في الرسم لم يحقق له ما كان يريده، إذ اختفت من رسومه الحيوية في الألوان لتحل محلها انساق مضجرة يرسمها أحياناً باللون الأزرق لوحده، وتلاشت تلك الشوارع البهيجة في ظلمة الليل، وهو يلج عالمًا منغلِقاً غريباً صامتاً اقرب ما يكون إلى الهلوسة تسكنه مخلوقات يبدو على سيماها الجوع والحزن والذهول: مشردون وعاجزون ومتسولون بانتظار الخلاص.

صديقه الشاعر الفرنسي غيوم أبولينير أعطى انطباعه عن رسوم بيكاسو في تلك المرحلة، فقال: "كان رسمه حزيناً مثيراً للشفقة، أزرقاً كقعر الهاوية الرطب، بذلك الميل للتكشف وذلك الاختيار الدقيق للثيمات. كانت هناك ثمة عاطفة مصطنعة على الرغم من أنّ بعض اللوحات كانت تصح عن حزن حقيقي وانكفاء مرير من الحياة، كما في لوحاته: امرأة جالسة، الأعمى، الأختان، الأمومة". مأخذ نقاد الفن على بيكاسو تركّز على انتقائيته التي تعكس طبعه المتقلب. وفي عام (١٩٠٣) حدث تحول في فن بيكاسو عندما انجز لوحة (الحياة) التي ظهر فيها بوضوح للمشاهد وللناقد الفني على حد سواء.

كان بيكاسو وقتها ما يزال شاباً يجرب أسلوبه الذي ثبت أنّه كان فعّالاً. وهناك احتمال أنّه كان يتماهى مع الأفراد التعمساء الذين كان يرسمهم. تعليقاته المتناقضة عن باريس واضحة في رسالة كتبها إلى صديقه الفنان والشاعر ماكس جاكوب. وإذا كان بيكاسو قد اخبر أياً من أصدقائه لماذا كان العمى مهماً بالنسبة له، فإنّ ذلك ممّا لم يصل إلى علمنا، لكننا نعرف أنّ نظر والده في ذلك الوقت كان يتدهور باستمرار. كان بيكاسو في بيته في برشلونة مع والديه عندما رسم بعض الأشخاص العميان في مرحلته الزرقاء. ويرجح أنّ اهتمامه بتصوير الفكرة في لوحاته قد يكون مردّه أنّه كان يخشى العمى كثيراً في حياته، وقد تكون تلك طريقتة لحماية نفسه من تلك العاهة. وأكثر مرّة اقترب فيها بيكاسو من مناقشة العمى كانت في إشارة غامضة منه تعود إلى منتصف الثلاثينات من القرن الماضي عندما قال: في الحقيقة، الحبّ هو ما يهمّ في النهاية. يجب أن يقتلعوا عيون الرسّامين كما يفعلون بعيون العصافير لجعلها تغني أفضل". رولاند بنروز الذي سجّل هذه الكلمات كتب يقول: "قد لازم رمز الرجل الأعمى بيكاسو طوال حياته وكأنّه كان يتقرّب منه ليهديه رؤيته الفنيّة الفريدة". وعلى الرغم من أنّ اسم الموديل في لوحته لا شليستينا معروف، إلا أنّنا لا نعرف ما الذي تسبّب في ابيضاض قرنيّتها التي يتباين لونها بشكل واضح مع الأزرق الذي يهيمن على بقية هذه اللوحة. هذه المرأة وحيدة العين هي نفسها بطلة رواية بالاسم نفسه كتبها فرناندو دي روهاس، وتعد الآن ثاني أهمّ عمل أدبي إسباني بعد دون كيخوت لـ (سرفانتس).

سبب ضمور حدقة العين في لوحة بيكاسو الأخرى عازف الغيتار العجوز هو أيضاً غير معروف. منطقة العين في هذه اللوحة تحيطها ظلال زرقاء قاتمة، وهي سمة ميّزت كثير من لوحات المرحلة الزرقاء. وأيضاً لا نستطيع تحديد سبب ضعف بصر الرجل الذي يظهر في لوحة بيكاسو بعنوان طعام الرجل الأعمى. بيكاسو وصف ما كان يرسمه في هذه اللوحة بطريقة موجزة عندما قال: "إنني ارسم رجلاً ضريراً يجلس إلى طاولة ويمسك ببعض الخبز بيمينه، في حين يبحث بيساره عن أنية النبيذ".

صور العمى تعود في الأساس إلى اليونان القديمة. وقد اشتهر هوميروس نفسه بكونه شاعراً أعمى. في الفن والأدب الإسباني، كان الشاعر الأعمى يتحول في رسوم بيكاسو إلى عازف غيتار أعمى. المتسولون العميان كان منظرهم مألوفاً في شوارع إسبانيا طوال قرون. الفنان فرانثيسكو دي غويا رسم لوحات متعددة عن موضوع العمى. وبيكاسو رسم وحفر أعمالاً تركز على الفكرة نفسها. وقد تكرر هذا في مرّات متعددة أثناء المرحلة الزرقاء. ومن حين لآخر كان يعود إلى صورّ العميان، من مثل لوحته التي صورّ فيها كائن (مينوتور) أعمى.

في العصور الوسطى، كان الرسّامون يصوِّرون العمى على أنّه مظهر من مظاهر ضعف الإنسان أمام جبروت الله أو عقوبة من الله على آثام وخطايا الإنسان. وبطبيعة الحال كان الهدف من ذلك تكريس الأفكار المسيحية وتذكير الإنسان بما يجب أن يكون عليه حال المؤمن. في عصر النهضة اختفت الحمولة الدينية لمفهوم العمى وأصبح الإبصار رديفاً للمعرفة، من دونه لا يستطيع الإنسان أن يبصر ومن ثمّ أن يعرف. رسم رامبرانت العميان استناداً إلى القصص الدينية، لكنه كان في لوحاته يتأمل معنى ظاهرة العمى في زمانه. وإحدى المشاكل التي واجهها الرسم في تصويره لهذه الظاهرة هي صعوبة تمثيل العمى صورياً، لأنّه شيء تجريدي صرف وليس له سمات جسدية كتلك التي تميّز أشكال الإعاقة الأخرى. من أشهر الرسّامين الذين صوروا العمى في لوحاتهم كلّ من: أنغر، ومونكاشي، ودافيد، وبيتر بريغل، وبوسان. ومن الشخصيات التاريخية التي ارتبطت بالعمى وتناولها الرسم كلّ من هوميروس، وشمشون، وبيليساريوس، والشاعر جون ميلتون مؤلّف رواية الفردوس المفقود. في القرن العشرين أصبح الرسّامون يستعلمون العمى كرمز للجهل أو العجز أو الضعف وفقدان الإنسان طريقه. وكثيراً ما كان يُصوّر الأعمى كشاعر أو موسيقيّ أو فيلسوف. الرسّام الإسباني بابلو بيكاسو اشتهر أنّه أكثر فنّان في القرن العشرين رسم العميان في لوحاته. وكان العمى موضوعاً لعب دوراً مهماً في أسلوب بيكاسو المميّز خلال ما عُرف بالمرحلة الزرقاء.